الافاعي واقوال العرب فيها

(تابع ما قبلهُ)

قال الجاحظ بين الحيات وبين الخنازير عداوة والخنازير تأكلها اكلاً ذريعاً. وسموم ذوات الانياب من الحيات ومن ذوات الابر سريعة في الخنازير وهي تهلك عن ذلك هلاكاً وشيكاً فلذلك لا ترضى بقتلها حتى تأكلها. وتأكل الحيات العقبانُ والاياثل والاراوي والاوعال والسنانير والقنفذ الاَّ ان القنفذ اكثر ما يقصد الى الافاعي وانما يظهر بالليل فيشبّه بهِ النمام والمداخل والدميس لخروجهِ بالليل دون النهار ولاحتيالهِ للافاعي قال عبدة ابن الطبيب

ان الذين ترونهم خلاَّنكم يشفي صداع رؤوسهم ان تصدَّعوا
قوم اذا دمس الظلام عليهم خرجوا قنافذ بالنميمة تمرحُ

وفي عهد آل سجستان على العرب حين افتتحوها لا تقتلوا قنفذاً ولا ورلاً ولا تصيدوا لانها بلاد افاعٍ. واكثر ما يجتلب اصحاب صنعة الترياق والطاووس الافاعي من سجستان وذلك كسب طعم وحرفة متجر ولولا كثرة قنافذها لما كان لهم بها قرار. والقنفذ لا يأتي اي موضع قبض من الافاعي وذلك انهُ ان قبض على رأسها او على قفاها فهي مأكولة على اسهل الوجوه وان قبض على وسطها او على ذنبها جذب ما قبض عليهِ فاستدار وتجمَّع وضمَّ سائر بدنهِ فمتى فتحت فاها لتقبض على شيء منهُ لم تصل الى جلدهِ مع شوكهِ الثابت فيهِ. والافعى تهرب منهُ وطلبهُ لها وجرأتهُ عليها على حسب هربها منهُ وضعفها عنهُ

نقول اما قول الخنازير للحيات فمحتمل واكل العقبان والسنانير والقنافذ لها صحيح واما اكل الاياثل والاراوي والاوعال لها فغير صحيح لان هذه الحيوانات من آكلات النبات لا من آكلات اللحوم. وكذلك القنفذ اذا اريد بهِ الحيوان ذا الشوك الطويل لان هذا طعامهُ النبات واما الحيوان الذي شوكهُ قصير ويجتمع على نفسهِ كالكرة فهو يأكل الافاعي والحشرات ويخرج في الليل كما قال الجاحظ. وسجستان بلاد وراء بلاد فارس شرقاً

وقال الجاحظ اما قولهم افضلُ من حيَّة وافضلُ من ورل وافضل من ضب فاما الحية فانها لا تتخذ لنفسها بيتاً والذكر لا يقيم في الموضع وانما يقيم على بيضها بقدر ما تخرج فراخها وتقوى على الكسب والتماس الطعم. ثم تصير الانثى سيَّارة متى وجدت جحرًا دخلت واثقةً بان

الساكن فيه بين امرين إما اقام فصار طعمًا لها واما هرب فصار البيت لها ما اقامت فيه ساعةً كان ذلك من ليل او نهار

نقول ان الافاعي لا تتخذ نفسها بيتًا لان ليس لها مخالب ولا اسنان تحفر بها البيت كذوات الاوجار . وحضن الذكر للبيض محتمل لما يناهُ في الجزء الماضي من ان حية حضنت بيضها في بستان النبات بباريس

قال وقد رأيت بيض الحيات وكسرتهُ لأتعرَّف ما فيهِ واذا هو بيض مستطيل اكدر اللون اخضر وفي بعضهِ هش ولمع واما داخلهُ فلم ارَ فيهِ قط ولا صديدًا خرج من جرح فاسد الاَّ والذي في بيضها امجج منهُ واقذر . ويزعمون انها كثيرة البيض جدًّا وان السلامة في بيضها على دون ذلك وان بيضها يكون منضَّدًا في جوفها على عرار واحد وعلى خيط واحد . وهي طويلة البطن والارحام وعدد اضلاعها عدد ايام الشهر وكأن ذلك بعض ما زاد في شدَّة بدنها

نقول ولقد احسن بكسرهِ البيض كانهُ اراد ان لا يكتفي بالمسلمات بل يعتمد على المشاهدة والامتحان ولو شرَّح حية كبيرة لرأى ان اضلاعها اكثر من ذلك كثيرًا

قال الجاحظ والعرب تذكر الحيات باسمائها واجناسها فاذا قالوا ايم فانما يريدون الذكر دون الانثى ويذكرونهُ عند جودة الانياب وخفَّة البدن كما تذكر الشعراء في خفة الخيل الجرادة الذكر دون الانثى . واذا انابت في الكثبان والرمل تبين مواضع مزاحفها وتعرف آثارها قال الشاعر

كأن مزاحف الحيَّات فيها قَيْلُ العيج آثار السياطِ

قال ولا ثوب ولا جناح ولا ستر عنكبوت الاَّ وقشر الحيَّة احسن منهُ وارق واخف وانعم واعجب صنعةً وتركيبًا ولذلك وصف كُثيِّر قميص ملك فشبههُ ببلغ الحيَّة حيث يقول

اذا ما افاد المال اودى بفضلهِ حقوق فكرَّهُ العاذلات يرافقهُ
تجرَّد سربالاً عليهِ كأنهُ سبيءُ لمزنى لم تقطَّع سرائقه

وتزعم الاعراب ان النعام والافعى صمٌّ لا تسمع وكذلك هما من بين جميع الخلق وقد ابتليتا بضربين من الناس احدهما يبلغ من حبهِ للغرائب ان يجعل سمعهُ هدفًا لتوكيد الكذابين وقلبهُ قرارًا لغرائب الزور ولكلفهِ بالغريب وشغفهِ بالطُّرَف لا يقف على التصحيح والتمييز فهو يدخل الغث في السمين والممكن في الممتنع ويطلق بادئ سبب ثم يدفع عنهُ كل الدفع . والصنف الآخر وهو ان بعضهم يرى ان ذلك لا يكون منهُ عند من يسمعهُ يتكلم الاَّ من خاف التقزز من الكذب فزعم ناس أن الدليل على ان الافاعي صم قول الشاعر

انعت فضاضاً من الحيّاتِ اصم لا يسمع للرقاتِ

وقد ذكروا بالصمم اجناساً من خبيثات الحيّات وذهبوا الى امتناعها من الخروج عند رقية الراقي فقال بعضهم

وذات قربين من الافاعي صماء لا تسمع صوت الداعي

وقال آخر

ومن حنش لا يجيب الرقا ةَ ارقش ذي حمة كالرشا
اصم سميع طويل السبات منهرة الشدق عاري الشا

وقال آخر

اصم اعمى لا يجيب الرقى يفترُّ عن عضلٍ حديداتِ
منهرت الشدق زقود الضحى سارٍ طموحٍ بالدجناتِ
وقارةٍ عجسهُ ميتاً من طول اطراق واجناتِ
يسبتهُ الصيحُ وطوراً لهُ نفخ ونقب بالمغاراتِ

فجعلهُ افضل الانياب منهرت الاشداق ثم وصفهُ بالسبات وطول الاطراق وسرعة النشطة وخفة الحركة

قالوا والافعى ليس باعمى وعينهُ لاتنطبق وان قُلعت عادت وهو قائم العين كعين الجرادة كأنها مسمار مضروب ولها شعاع خفي قال الراعي يصف الافعى

ويدفي ذراعيهِ اذا ما تبادرا الى رأس صلٍ قائم العين اسقع

وقد رأيت عند دواد بن محمد الهاشمي كتاباً في الحيات أكثر من عشرة اجلاد (مجلدات) ما يصحُّ منها مقدار جلد ونصف . ولقد ولّدوا على لسان خلف الاحمر والاصمعي ارجازاً كثيرة فما شكّ بتوليدهم على السنة القدماء

ووصفت الافعى امرأة جاهليّة فقالت

ويدير عيناً للوقاح كأنها سمر اطاحت من نقيض بريرِ

فقد زعمت انها تدير عيناً وزعم الاول انها قائمة العين الاّ ان تزعم انها لم ترد بالادارة ان مقلتها تزول عن موضعها ولكنها ارادت انها جوّالة في ادراك الاشخاص البعيدة والتربية والمتيامنة والمتياسرة وقد يجوز ان يكون جعلها سميعاً لدقة الحس وكثرة الاكتراث وجودة الشم لا جودة السمع فان الذين زعموا ان النعامة صماء زعموا انها تدرك من جهة الشم والعين جميع الامور التي كانت تعرفها من قبل السمع لو كانت سميعة . وقد قال الشاعر في صفة الحية

تهوى الى الصوت والظلماء عاكفة تعود الـيـل لاقى الجيد فاطّلعـا

هذا بعد ان قال

انى ومـا تبتغي مني كعابثس صيدًا وما نال منهُ الريُّ والشبعا
اللون اربد والانياب شائكة عضل ترى السم يجري بينها قطعا
اصم ما شمَّ من خضراء ايـهـا او شم من حجر أوهاهُ فانصدعا

فقد جعل لها أنيابًا عضلاً ووصفها بغاية الخبث وزعم انها تسمع . فهؤلاء ثلاثة شعراء . فان قلت ان المولد لا يؤمن عليهِ الخطاء اذا كان دخيلاً في ذلك الامر وليس كالاعرابي الذي انما يحكي الموجود الظاهر لهُ الذي عليهِ نشأ وبمعرفتهِ عزي فالعلماء الذين اتَّسعوا في علم العرب حتى صاروا اذا اخبروا عنهم بخبر كانوا الثقات في ما بيننا وبينهم هم الذين نقلوهُ الينا وسواء علينا جعلوهُ كلامًا وحديثًا منثورًا او جعلوهُ رجزًا وقصيدًا موزونًا

نقول وانتقاد الجاحظ حسن جدًّا ولكن النسخة التي عندنا ليست صريحة بل فيها كثير من الدخيل على ما يظهر كأن الذي خطَّها جمع بين المتن والحواشي فلا يسهل علينا الفصل بينهما . وفيها ايضًا لحن كثير اصلحنا بعضهُ ولم نستطع اصلاح البعض الآخر

تاريخ مدينة منف

بقلم حضرة احمد بك كمال الامين الوطني في المتحف المصري

تأسست هذه المدينة سنة ٥٦٢٦ قبل الهجرة وهي مبدأ تاريخ الديار المصرية كما ورد في جدول مانيثون وعن الثوراة ان الوجه البحري اعطي اقطاعًا لنفتوحيم ثالث اولاد مصرايم واستوطن فيهِ هو وذريتهُ وتسميهم الآثار نوبتاح اي السكان المنسوبين الى مدينة بتاح وهي التي سميت فيما بعد منف وبتاح هذا هو اول معبود عند اهل هذه المدينة وهو رأس العائلات المقدسة في مذهب كهنتها . ثم اجتمع فيها خلق كثير وتزايد عمرانها واتسعت اعمالها وامتد نفوذها وتعالى فخرها حتى صارت عاصمة الملك وكان ينبعث منها اهم امور المملكة المصرية وتصدر منها الارادات والاوامر السنية وصارت مستودعًا للتجارة ومقرًّا للصناعة وكان فيها مكتبة عظيمة اخذ منها هوميروس الشاعر جميع ما اشتملت عليهِ قصائدهُ من الحوادث . وذكر استرابون انهُ طالع في كتب الكهنة التي كانت فيها محفوظة في مكتبة مخصوصة . وكان فيها ايضًا مقابر الملوك واهم آثارهم منها معبد بتاح وهو اقدمها وكان محرابًا صغيرًا لما كان في موضع منف قلعة أنبوحزو